مجلة إشكالات في اللغة والأدب — مجلد: 10 عدد: 4 السنة: 2021
ص: 74 - 88 — E ISSN: 2600-6634 ⁄ ISSN:2335-1586

الاستضافة الغربية والمغاربية للتفكيك: جاك دريدا كأكثر من واحد

Western and Maghreb hosting for deconstruction Jacques Derrida as more than one

وسيلة مجاهد[1]*، بدرة قرقوى[2]

Wassila Medjahed[1], Badra Gargoua[2]

جامعة الجيلالي اليابس– سيدي بلعباس(الجزائر)

مخبر النقد والدراسات الأدبية واللسانية

Djilali liabés university of sidi bel abbes(Algeria)

wassilasilla94@gmail.com [1] badra84.ost@gmail.com [2]

تاريخ الإرسال: 2020/11/09	تاريخ القبول: 2021/07/24	تاريخ النشر : 2021/12/04

مُلخّص البحث

بفضل هويته المتعددة والأكثر من واحدة تمكّن جاك دريدا من فرض نفسه وفلسفته على البيئة والفكر المغاربيين، وبفضل عبثه بمنطق الضيافة ومناداته بضرورة تخليها عن شروطها، احتل موضع المستضيف ولم يعد ضيفا. يتمثل هدفنا ها هنا في تتبع مسار وسبل استضافة التفكيك وصاحبه في المغرب العربي، محاولين قراءة التفكيك من خلال دريدا وليس العكس، لذلك سعينا للإجابة عن عدة إشكالات تعلّقت بمفهوم الهوية ودورها في تعايش التفكيك مع الآخر المغاربي، بل والتماهي معه وكيف ساهمت رؤية دريدا للضيافة في قلب الموازين وجعل المستضيف ضيفا. معتمدين في كل ذلك على التأويل كسبيل لقراءة التفكيك من خلال صاحبه، وتفسير طريقة تعايشه وتعامله مع البيئة المغاربية وتعاملها معه.

الكلمات المفتاح : تفكيك؛ هوية؛ غيرية؛ إضافة؛ ضيافة؛ تعايش.

Abstract :

Because of his multiple identity, Jacques Derrida knew how to impose himself and his philosophy on the environment and the thought of the Maghreb, he took the post of host and not a guest thanks to his alteration of the logic of hospitality and his calls for the abandonment of his conditions. Our objective is to follow the path and the ways of welcoming deconstruction and its owner in the Arab Maghreb, by trying to read deconstruction through Derrida and not the other way around, so we sought to answer several issues related to the notion of identity and its role in the

* مجاهد وسيلة wassilasilla94@gmail.com

coexistence of deconstruction with the other Maghreb, and how Derrida's vision of hospitality turned the scales to make the host a host.

In all of this, we rely on the interpretation as a way to read the deconstruction through its owner, and to explain the way in which it coexists and deals with the Maghreb environment and how did he deal with it?

Keywords: deconstruction; identification; altruism; addition; hospitality; coexistence.

- **مقدّمة:**

ولد التفكيك في اللحظة التي قلب فيها جاك دريدا Jacques derrida الشاب القادم من باريس صاحب النظرات الثاقبة الطاولة على الجميع في جامعة جون هوبكنز الأمريكية، أثناء انعقاد مؤتمر العلوم الإنسانية. ومنذ اللحظة التي قدّم فيها دريدا ورقته المشارك بها في المؤتمر والموسومة ب: البنية والعلامة واللعب في خطاب العلوم الإنسانية. بعدها لم تعد البنيوية هي نفسها وراح حضورها يخفت، في الوقت الذي بدأ نجم التفكيك يُشع.

في أمريكا وجد التفكيك ضالته، والصدر الرحب الذي استقبله وتبناه، بعدما لفظته الثقافة الفرنسية لعدم تناسبه وتربتها. التربة التي من خلالها تبدأ العلاقة مع العالم. دخل التفكيك بفضل شهرته واسعة النطاق في علاقة مع العالم، وبدأ اسم جاك دريدا Jacques derrida يعرف تداولا كبيرا في الساحة الفلسفية والنقدية على حد سواء. تألق الفضول في عيون الكل، فحاول الجميع دخول صرح لم تحدد معالمه ولن، بل جاء على هيئة متاهة لا تغري إلا من يملك روح المغامرة. إذ أنّ كل الذين دخلوا إلى أقاليم دريدا صرّحوا بصعوبة اختراق نصوصه الفلسفية وبضرورة التسلّح بعُدّة متينة، وبشجاعة كبيرة لخوض غمار هكذا مغامرة غير مضمونة النتائج؛ مغامرة القراءة لفيلسوف لطالما لغّم نصوصه بالأضداد وجعلها مساحة لتعايش المتناقضات، ولزحزحة اللغة بعشق بعيدا عن مظاهر جمودها المريع ومبادئها الأساسية.

ومما زاد هذه النصوص صعوبة وعمقا تطرقها للامفكر فيه، وإنصاتها بواسطة أذن ثالثة إلى المسكوت عنه، مُحتفية بالعرضي والطارئ. لكن هذا الاقتحام الحذر والبعيد عن الراحة يخلق داخلنا متعة خاصة لا تنفصل عن العناء، بل تغدو عزاء فيه من النشوة ما يكفي للحثّ على الاستمرار، والغوص

أكثر في هذا الصرح الديريدي. إنّها نشوة الوقوف على أرضية نصية قُلب فيها الترتيب البرهاني للنص، وتم العبث بتسلسل أطرافه، فتنضيد النص لديه يُضارع في التفنّن ما قام به ملارميه وأبولينير، ويُذكّر بقدامى الخطاطين والمحبرين والمنمقين الشرقيين في تزيينهم للمؤلفات العبرانية والعربية والفارسية. مُلغيا بذلك التفريق التقليدي بين أعلى النص وأسفله، متنه وحواشيه، كما فعل في" صماخ " Tympan أو في" نواقيس " المكتوب على شكل أعمدة، مُحققا مسارب ومسارات، طوابق وطبقات شبه غير متناهية.

لقد كان دريدا في كتاباته يلعب بالكلمات مُطاردا كل مفردة، ومُترصّدا إمكاناتها المختلفة وأداءاتها العديدة، عاملا على استنفاد مخزونها الدلالي ومُجبرا إياها على إعطاء أفضل ما تقدر عليه في سياق معين، ولم يكتف باللعب فقط بل راح ينحت كلمات جديدة، يمتلك هو وحده مفاتيح معناها، مما يجعل الكتابة الديريدية ضبابية وغائمة، هرمسية أو غنصوية، تستدعي إلى الأذهان صورة" تحوت " الإله المصري القديم ورب الكلمة الذي وصفه دريدا بأنه يُخفي ويتخفى دائما، هذا ما أوصل نصوصه إلى منطقة اللاحسم L'indécidable أو المعضلة Aporie لتُنعت بالكتابة المرموزة Criptogramme تعاف ادعاء الوضوح أو امتلاك الحقيقة المطلقة، فالنقص الأصلي للوجود لا يمكن رأب صدعه أبدا بصفة نهائية، وهنا يكمن الموقف الأخلاقي للتفكيك في الوعي بالتضاد الأصلي، وفي تلك الرغبة الدائمة لاستكمال ما يرجئ كماله دوما، مع الاعتصام الدائم بالبعد النقدي المقاوم لسيطرة الذات على الموضوع[1].

الوصول إلى مناطق اللاحسم، واللعب في ملاعب المعضلة التي لا حل لها، إلى جانب احتفاء هذه الفلسفة بالآخر المختلف، كلها شكّلت سببا من أسباب عناية الباحثين بفلسفة جاك دريدا وبكتبه وأبحاثه، حيث شمّر المترجمون عن سواعد لغاتهم الأم/ الأصلية وعملوا على استضافة تلك المؤلّفات وتقديمها لثقافاتهم كي تدخل هذه الأخيرة في حوار مفتوح مع الثقافة التي أنجبت تفكيك دريدا. إلى جانب الترجمة سال حبر الباحثين، فراحوا يكتبون عن فلسفة الهوامش، بل ويعتمدونها في دراساتهم ومقارباتهم على قلتها. حيث تعددت الرؤى واختلفت الآراء متراوحة بين مؤيد ومعارض، إذ أثارت قضاياه المتطرق لها، وأسلوبه في الكتابة ذائقة البعض، كما استثارت حفيظة البعض الآخر، لما خلفته من إرباك لهم وتشويش زعزع دواخلهم وخلخل مسلماتهم.

لم يقف الفكر العربي المعاصر على الحياد، إذ نجده هو الآخر قد تفاعل وفلسفة التفكيك كما نقلت بعض دراسات دريدا إلى لغة الضاد، ووُضعت حول فلسفته الكثير من الدراسات والمقالات التي

من شأنها التعريف به وبأفكاره، إلى جانب محاولات تسعى إلى تطبيق استراتيجيته وتبنيها كوسيلة للاقتراب من النصوص العربية بما فيها التراثية، ومن الفكر العربي برمته.

لن نسرد ها هنا أجواء انتقال التفكيك من البيئة الغربية إلى البيئة العربية، كما أننا لن نغطي أجواء استقباله التي باتت معروفة وتطرقت لها الكثير من الدراسات سلفا، بل سننتقل مباشرة إلى البيئة المغاربية، لنسلط عليها الضوء، ونحاول معرفة كيفية تعاملها مع هكذا فلسفة مثيرة للكثير من الجدل، تحوم حولها علامات الاستفهام وطلاسم تنتظر الفك.

لذلك سنسعى للإجابة عن مجموعة إشكالات وأسئلة راودت النفس، وعلى إثرها بنيت هذه الورقة البحثية، من بينها: ما أثر هوية دريدا المتعددة على انفتاح الآخر عليه؟ وكيف كانت أجواء ومعايير استضافته في المغرب العربي؟ وهل دريدا الغربي/ المغاربي ضيف أم مستضيف؟

للإجابة عن هذه الأسئلة والإشكالات وضعنا فرضيات تمثّلت في العناية بمفهوم الهوية، ومحاولة تتبع طريقة تعامل وتفاعل هذا المفهوم مع مفهوم الغيرية، والعناية أيضا بمفهوم الضيافة، والكشف عن سبيله في التعامل مع الآخر المختلف، محاولين من كل ذلك تغطية ظروف انتقال دريدا من البيئة الغربية إلى البيئة المغاربية، ومعرفة مصيره ومصير فلسفته في البيئة المغايرة. ولعل الهدف من كل هذا هو قراءة التفكيك انطلاقا من دريدا وليس العكس والاطلاع عن قوانين استضافته في الفكر المغاربي، وعن سبل التفاعل مع فلسفته واستثمارها في قراءة هذا الفكر ونقده.

ولعل من المنهجيات المساعدة على تجاوز علامات الاستفهام، والقبض على إجابات تحد من قلق السؤال وتقلّل من أعراضه، المنهج الوصفي الذي اتبعناه لوصف هذه الفلسفة ولوصف أجواء تشكلها وظروف انتقالها، إلى جانب التأويل الذي يُمكّننا من قراءة التفكيك بواسطة صاحبه.

- **أوّلا: دريدا والآخر المغاربي، سُبل الانفتاح المزدوج:**

لقد تأسّس التفكيك على معرفة جديدة قوامها الترحال، وحتى يتحقق لنا هذا الأخير وجب بداية تحقيق الانفصال عن الأصول والجذور والتراث والهوية، نظرا لكونها مقوّمات الفكر التقليدي القائم على مبدأ المركزية ومنطق الأحادية والثنائيات الضدية. كما يركز التفكيك على فكرة العبور والتجاوز[2]. والانفصال ها هنا لا يعني القطيعة، بل انفصال يفتح إمكانية الاتصال والتواصل مع الطرف النقيض المختلف. هذا ما يُفسر سبب كسره لحدود الذات المتمركزة وتجاوزها، إذ نجده قد عرف انتشارا واسعا وانفتاحا على الآخر، بل وأخذ أشكالا مختلفة، نظرا لطبيعته الحرباوية المتجاوبة مع كل مختلف.

تمكّن التفكيك من جذب وجلب الانتباه وخطف الأنظار، وبطريقة مستترة نادى من هم بعيدون عنه ليقتربوا وليقربوه منهم، وقد استجاب المغرب العربي للنداء، هذا الأخير الذي أشرقت فيه شمس دريدا من مغربها، أو الأصح من غربها، أين تمركزت الذات الأوروبية ردحا من الزمن. في الاقتراب قرابة تربط هذا بذاك، تختصر المسافة وتقلصها، ولو أنّ التفكيك فلسفة المسافات، بقدر ما تقترب منه بقدر ما يبتعد عنك ويتمنع.

لم يكن دريدا غريبا عن المغرب العربي أو دخيلا عليه، اللهم إلا إذا تعلّق ذلك بفكره وفلسفته. ففيلسوف الهوامش ولد في الجزائر، وعاش بمعية الجزائريين مدة ليست بالقصيرة، كما كوّن صداقات مغاربية في فرنسا، إذ نجده صديقا لعبد الكبير الخطيبي، صاحب النقد المزدوج وأحد المهتمين بالتفكيك والمشتغلين عليه. إضافة إلى أنّ دريدا كان يعرف نوعا من الحنين إلى الجزائر، فنحت بذلك كلمة جمع فيها الحنين بالجزائر: حنينالجزائر nostalger حنين دفعه إلى حمل طيف بختي بن عودة في حقيبته، والاستماع للأغاني الشعبية وهو في سيارته، يتنقل من مكان إلى آخر في فرنسا وتتنقل معه الجزائر، مسكنه الأوّل المفقود والمفقودة معه سكينته. دريدا لم يكن جزائريا تماما ولا فرنسيا تماما، لذلك لم يكن صاحب مسكن وبالتالي السكينة المقترنة بالإقامة demeure، المقترنة هي الأخرى بالديمومة demeurer المتحققة بفعل الاستقرار والمحققة له. المكان لم يكن مكانه في كل الحالات بل كان ذلك الضيف/ الطيف المتعايش مع المكان من أجل الحصول على تمكين يُمكّنه من التأقلم. إنّ المكان الوحيد الذي استوطنه دريدا هو النص، لكونه يهوديا بلا أرض.

بانتماء جاك لأكثر من هوية، باتت هذه الأخيرة ذات طابع فارماكوني، الفارماكون pharmakon أو الترياق الجامع بين النقيضين، أي بين هذا وذاك، ينفتح فيه كل طرف على الآخر، بل ويتعايشان ويُعدي فيهما الواحد الآخر، دون تصالح ولا إشباع ممكن. إنه الذات والآخر في الوقت نفسه، هذا الأخير يعيش داخل الذات ليحدد معالمها. إنّه جسم مجزأ بدون مكان atopique منزاح عن المركز[3]، هكذا كان دريدا، وهكذا كان نصه أيضا.

يرتبط الاستقرار بالقرار، فالشخص المستقر والقار في مكان محدد وهوية مضبوطة تتاح له إمكانية اتخاذ القرارات وإصدار الأحكام. دريدا اللامستقر على طرف، صاحب الهوية الأرخبيلية المضيافة، الحاضنة للأنا وللآخر على حد سواء، كان القرار بالنسبة له بعيد المنال لذلك نجده يُفلت من لحظات القرارات الحاسمة، ويهرب من محاكم الحكم المطلق والنهائي وكذا بالنسبة لتفكيكه الذي لم يُحمّل نفسه

وزر إصدار الحكم، بل يستوطن النصوص لبرهة من الزمن، يوجه أثناءها ضربات خفيفة لأركانه وأعمدته، ليكتفي بعد ذلك بمشاهدة تبعات تلك الضربات الخفيفة، الفاضحة لهشاشة النص وضعف أعمدته، بعدما ادعى التماسك ولبس لباس الانسجام. من الداخل يعاين التفكيك نزاعات النص، لكنه لا يعمد إلى حلها، بل يتركها تتفاعل لتخلق لنا نصا جديدا، يُنازع النص الأول، لكنه لا يؤول إليه بل إلى نص آخر جديد.

التطرّق للهوية ها هنا جاء من باب تفسير طبيعة التفكيك، انطلاقا من صاحبه لنعرف من خلال ذلك سبيل انفتاح دريدا وتفكيكه على الثقافة المغاربية، أو كيف استضافت هذه الأخيرة فلسفة الهوامش، قصد استخدامها لاستجواب هويتها الخاصة. وقد كانت الانطلاقة من جاك لنصل إلى التفكيك وليس العكس، إذ لطالما حجب التفكيك صاحبه، لذا سعينا إلى إعادته للواجهة.

إذا ما طرحنا سؤال الهوية، فإننا سنعثر بالضرورة على إجابات عديدة، سيُسرف فيها أصحابها رجما بالغيب، أو سيجترون المفاهيم السابقة، ذلك لأنها كلمة مطاطية ومفهوم سائل، يأخذ أشكالا متعدّدة ومختلفة باختلاف قوالبها، تصور زئبقي متعذّر الإمساك به. لأنّه متعدد المجالات والاستخدامات المعرفية والفكرية. إضافة إلى أنّه حديث الإنسان عن الإنسان أو حديث الذات عن الذات، كحديث اللغة عن اللغة، هذا ما جعله مفهوما فضفاضا شاسع الدلالات، يقول الشيء ذاته عن طريق ذاته، أي يصبح في حالة مربكة ومركّبة بين من يقول وما يُقال، فيغدو الكلام عن الهوية حديث المخفي في ثوب الجليّ، وحديث الغامض خلف الواضح، وحديث الاختلاف والإقصاء بلغة الجمع والالتقاء. فكلمة الهوية من بين الكلمات التي يحكمها الاختلاف، والتي تحمل في داخلها خارجها، لا تكمن أهميتها في قوتها التفجيرية فحسب؛ تفجير المعاني والمفاهيم والثنائيات، وإنّما في كونها تسمح لنا بالكشف عن المنطق المتحكّم في الطرفين المتصارعين فيها أيضا[4].

دريدا الفاقد لبطاقة هويته، المنزوعة منه عنوة، بعدما تم سحب الجنسية الفرنسية منه لمدة من الزمن، عاش تلك الفترة بلا هوية، كمجهول لا أحد يعرف كيف يصفه أو يحدد ماهيته، تماما كمفهوم الهوية السائل، المفهوم المتداخل مع مفهوم الماهية؛ ذلك لأنّ الهوية لغويا تعني أن يكون الشيء هو هو لا غيره، أما الماهية فتعني أن يكون الشيء" ما هو " بزيادة حرف الصلة" ما " على الضمير المنفصل" هو "، وفي اللغات الأجنبية لكل لفظ منفصل ماهيته essence من اللاتينية esse وهو فعل الكينونة، ولفظ الهوية identité من الضمير id أي هو، كما تتداخل مع مفهوم الجوهر المستعار من علم المعادن بمعنى

الجوهر النفيس ولب الأشياء، هذه المفاهيم الثلاثة تنتسب إلى جوهر معنوي واحد[5]. ومن identité والتي تُرجمت في محطات عدّة بالموجود هنا، المحيل بالضرورة إلى الدازاين الهايدغيري dasein يمكننا من استخلاص بعض الكلمات القريبة منها مثل: identique وتعني مطابق ومنها identification أي التماهي، وهو ما يُفسر تعريف الهوية انطلاقا من مبدأ اللاتناقض أي مبدأ الذاتية؛ المبدأ الميتافيزيقي الدال على الماهية.

إذن هذه التعريفات المذكورة والقديمة كلها ذات صبغة ميتافيزيقية تُعلي من الذات أو الأنا وتهمّش الآخر. فهي لطالما عملت على حجب الآخر بشتى ذرائع اللوغوس، وتحت مسوغات الوعي والعقل، مما أسر الهويات في صرح الأحادية، وخلق تمركزا حول الذات خنقها طويلا، لهذا ظل الآخر قابعا في جزر المجهول، سرا أو شبحا يتوجب الحذر منه[6].

هذا ما جعل جاك دريدا يدعو إلى ضرورة تجاوز الميتافيزيقا، حيث عمل بتفكيكه على تقويض الثنائيات الضدية، من بينها ثنائية: الذات/ الآخر، مُخلخلا المراكز الضامنة للوجود كحضور، مُستدعيا للهوامش وداحضا للتراتبية. فلا وجود لمركز نقي خالص ومخلص لنقائه لأنه لا وجود لتضاد خالص، بل كل مركز يحمل في داخله هامشا مضادا له. فلو أخذنا مفردة "الهو" في فرديتها الفينومينولوجية والتأويلية، لوجدناها تقول أكثر مما تريد إيحاءه مفردة الهوية الدالة على التطابق والتماثل، إذ تدل على إزاحة لغوية لا يمكن تجاهلها، المحيلة إلى عناصر الغياب والغيرية، حتى وإن دلّت في اشتقاقها المنطقي على سياقات الحضور والإنّية، أي اشتقاق ما هو مُغاير للذات في الذات عينها. ولو تأملنا مفردة الهوية لوجدنا أنها ليست مجرد اكتمال داخلي يكفي نفسه بنفسه، أو حضور محض يُفلت من أنفاق الإنسان وعثرات النسيان، بقدر ما تُحيل إلى أرضية غير مُكتشفة في قارة الهوية، وهي أرضية الغيرية في الذاتية عينها.

فالهو البارز في الهوية من فرط إخفائه وحجبه، له وظيفة الإزاحة والمجاوزة، لتنفتح هذه الأخيرة على قيم الغيرية الكامنة في أعماقها وتنحو في الغالب صوب إنكارها أو اختزالها. إذن فمفردة الهو لا تدل فقط على المطابقة والمساواة، إنما تدل فينومينولوجيا وتأويليا على المغايرة والغيرية والغياب[7]. بتفكيكه للميتافيزيقا فكّ دريدا كرب الاختلاف وفتح أمامه أفقا للدخول في صرح الهوية، حيث عمل على بعث طاقة التعبير الحيّة في المعنى الآخر المهمّش بقطع ذلك التمثل الثنائي وبالتالي مبدأه التراتبي، وهو عندما يعيد الاعتبار إلى الطرف الآخر المقصي والمهمش(الآخر) لا يهدف إلى تأسيس مركزية مضادة، بل يروم إلى تقويض دعائم كل ثنائية كيفما كانت، فتفكيكه جاء لنسف دعائم كل مركزية[8]، مما فتح المجال واسعا

أمام الغيرية l'altérité باعتبارها مغايرة للذات وفرعا آخر عن "الأنا" وانحدار الهوية، فما الغيرية إلا طيف من أطياف الذات، أو صورة أخرى عنها، وما هي إلا انعكاس الأنا وصداها، أو شبحها وظلها اللامفارق لها، فالآخر هو الشبح المختلف والمرجأ أو المصير المؤجّل للهوية.

بذلك ستظل الذات مصابة بالآخر بشكل مزمن. إذ أنّ العلاقة فيما بينهما لا تفصلها إلا خيوط وهمية وطيفية، هي نفسها تلك الصلات التي تربط بين الظل وصاحبه. دريدا إلى جانب فلاسفة الاختلاف عمل على تعرية المنظومات الثابتة للمفاهيم واليقينيات وأسّسوا أرضية للشك، ونسفوا جميع المسلمات التي أبّدت المركزيات والأصول، فلا هوية ذات بعد واحد أو وجه واحد[9].

صعوبة تحديد ماهية الهوية نظرا لمفاهيمها القابلة لاحتضان النقيض، والمترامية على حدود معارف وتوجهات عديدة، جعلت الهوية متعددة وأكثر من واحدة، شأنها شأن دريدا المتعدد المتجدد. دريدا بمناداته لضرورة إقحام الهو المختلف في رحاب هوية الأنا، جاء كمحاولة أخيرة لإقحام نفسه كآخر أبدي، لقد ظل ذلك الآخر اللامشرقي واللاغربي على حد سواء إنه الآخر من كلا الجانبين، لذلك فهو أكثر من آخر؛ بل الآخر بصيغة الجمع أرضية فارماكونية احتشدت فيها الأضداد. لدريدا أكثر من هوية، وكذلك جاء قدر التفكيك كأكثر من واحد. هذا ما جعل من الصعب تحديد ماهية هويته، وبالتالي ماهية تفكيكه.

الملامح المتشظية لهوية دريدا وتفكيكه سمّمت كل تعارض ثنائي للدلالات وللهويات وللقيم أيضا، وبدأ التعامل معها بمنطق لا هذا ولا ذاك الفارماكوني، بل هناك تكملة لبعضهما البعض، حيث تنضافان الواحدة إلى الأخرى بدون نهاية. تُحيلنا هذه العبارة الأخيرة إلى مفهوم دريدي آخر، يصعب تقريره وحسم معانيه؛ فحتى مفاهيم فيلسوف الهوامش تشبهه، إذ لم تعرف الاستقرار هي الأخرى مما صعّب عملية تحديد معالمها وضبط تقرير نهائي حولها. المفهوم المحال إليه هو الإضافة supplément وهناك من ترجمه بالزيادة كما فعل كاظم جهاد أثناء ترجمته لصيدلية أفلاطون.

- **ثانيا: من الإضافة إلى الضيافة:**

الإضافة مصطلح متواتر بأكثر من مفعول، يحضن في أحشائه الشيء ونقيضه ويفترض إكمال الشيء وإتمامه، زيادة تكشف في الأوان ذاته عن النقص، إنه زائد ومزيد عنوة أحيانا؛ فضل وفضلة[10]. تكسر الإضافة بمقدار ما الحواجز اللامتوقفة عن إقامتها. تتحدد الإضافة سواء أكانت تكملة لنقص أو كانت فائضا بواسطة القيمة المضافة valeur ajoutée فلا إضافة بلا قيمة، لكن التتمّة المضافة تُعوّض،

إنّها تتدخّل عوضا عن، وإذا ما كانت ستملأ فكأنّما يتم ملأ الفراغ. والإضافة لا تعني أنها شيء زائد لا قيمة له يُضاف إلى أصل خالص المفهوم الميتافيزيقي بامتياز، والمقصود به أن الطبيعة بدون شوائب حاضرة أمام ذاتها ولا مجال للغياب، إنّما الإضافة ليست أقل أصلية، وهي من دحضت أسطورة الحضور والأصالة الخالصة فهي مفهوم دريدي تُضاف من أجل تكملة نقص، في الوقت نفسه تأتي على شاكلة إسراف إنّها هذا الزائد وهذا الناقص في آن معا لا يتعادلان أبدا، ولعبتهما تُعطّل وتُصدّع كل تعارض بسيط بين الإيجابي والسلبي.

أن تخفي لفظة نقيضها وتكون بالتالي مسرحا لحرب داخلية يعني أنّها تُعبّر عن حالة اخر(ت)ـلاف التي هي من جهة تأجيل، ومن جهة أخرى فُسحة l'espacement لا تُعيّن شيئا، ففيها لا شيء موجود ولا أي حضور عن بعد. إنّها تنقّل يُشير إلى غيرية لا تُختزل، بل وترتبط في عمقها بالغيرية وبالتالي بالاختلاف، وتلتقي مع التأجيل في حركيتها وصيرورتها حيث إنّها صيرورة زمانية للمكان، وصيرورة مكانية للزمان[11]. تنتمي هذه المفاهيم إلى منطقة اللاحسم، أو ما يصعب تقريره indécidables، إنها اعتراف لا يمكن سحبه من اللغة.

الإضافة هي الأخرى تحيلنا إلى مفهوم جديد يتمثل في الضيافة، بل تغدو العنوان الجليل لكل ضيافة خاصة بعدما أشارت في عمقها إلى الغيرية اللامختزلة، وبعدما تقبلت كل أنواع الاختلاف المرجأ وروّجت له. وقد أضافت إمكانية الانفتاح على الآخر. حديثنا هنا يخص أكثر الآخر المغاربي مقابل دريدا (الغربي)، ودريدا الغربي المغاربي إزاء نفسه؛ نظرا لهويته المتعددة والمترامية أطرافها بين الغرب والمغرب الكبير.

كل الذي سبق ساهم بشكل كبير في حث المغرب العربي عن الانفتاح على الفلسفة الدريدية، واستقبالها مع محاولة تقبلها واستثمارها، وقد تحقق ذلك بفضل نوع من التثاقف الهوياتي والمعرفي على حد سواء.

- **ثالثا: جاك دريدا في المغرب العربي، ضيف أم مستضيف:**

بسبب المثاقفة والترجمة والاحتكاك بالغرب، خاصة احتكاك المغرب العربي بالثقافة الفرنسية، نظرا للعوامل التاريخية المعروفة وأولها الاستعمار، فُتح مجال الحوار الثقافي مع الآخر وتبادل الأفكار والنظريات والفلسفات، إذ من الطبيعي أن يكون هناك نوع من التأثير والتأثر. ومن الطبيعي أن تترك شهرة جاك دريدا أثرها في النقاد والباحثين المغاربة.

منذ الثمانينيات بل وقبلها أيضا بدأ التفكيك يخطو خطواته ويتوسع في المغرب الكبير، توسع شهده من قبل في العالم العربي، إذ حظي بالكثير من الدراسات والأبحاث والمجلات التي عنيت بمحاولة التعريف به، وقد كانت البداية مع مجلات وجمعيات نذكر منها على سبيل المثال، رابطة كتّاب الاختلاف في الجزائر، ومجلة مواقع التي أسسها فريد الزاهي عام 1992، قام فيها بترجمة العديد من حوارات جاك دريدا. مع التسعينيات زاد الاهتمام به وبفلسفة الاختلاف، فعمل البعض على ترجمة بعض أعماله، في حين قام البعض بإعداد كتب ومؤلفات ومقالات حوله، وبدأت تعقد ندوات تتطرق لأفكاره. ولعل من أهم المشتغلين والمهتمين بهذا الحقل نذكر على سبيل المثال لا الحصر: عبد الكبير الخطيبي الذي كان صديقا لجاك دريدا، إلى جانب محمد نور الدين أفاية، عبد السلام بن عبد العالي، فتحي التريكي، عبد الملك مرتاض، محمد أركون، بختي بن عودة، محمد شوقي الزين، ناجي العونلي، و محمد بكاي.

لقد عاد التفكيك إلى المغرب العربي، وشهد نوعا من الاهتمام الذي جاء على شاكلة ترجمات، دراسات فلسفية وأخرى نقدية، ممارسات على قلتها وتنظيرات. وقد تباينت حوله الآراء من منبهر مؤيد، وآخر معارض نظرا لجذور التفكيك اللاهوتية، إلا أنّ هذا الأخير استطاع بشكل أو بآخر التعايش في الساحة النقدية المغاربية، آخذا حيزا ولو بسيطا من خطاباتها، حيّزا جاء في أغلبه نظريا، يحتاج إلى دعمه بالكثير من الممارسات التطبيقية.

إنّ استقبال وتلقي التفكيك في الخطاب النقدي والفلسفي المغاربي، لم يكن فقط عن طريق الترجمة، أو عن طريق الوسائط المتمثلة في المؤلفات والدراسات المكتوبة حوله بالعربية بل عرف أيضا تلقيا مباشرا عن طريق الصداقات المغاربية المنعقدة وجاك دريدا، وعن طريق الباحثين الذين حضروا دروسه، والذين ركبوا غمار قراءة أعماله بلغتها الأم. إلى جانب ذلك وجب أيضا التنويه إلى الدراسات التي كُتبت حول فلسفة دريدا، لكن بلغته لا بلغة الضاد فالمغاربية ها هنا لا تقترن باللغة العربية، بل بهوية وجنسية المتلقي مهما كانت لغته، زائد خلفياته الفكرية المنطلق منها. فعبد الفتاح كيليطو وعبد الكبير الخطيبي ومحمد أركون ألفوا مؤلفات وكتبوا دراسات حول التفكيك وصاحبه باللغة الفرنسية، لكنها تصنف ضمن الدراسات المغاربية، المترجمة إلى العربية هي الأخرى.

قلنا في الأسطر السابقة بأنّ التفكيك عاد إلى المغرب العربي بعودة صاحبه، ولو أنّ هذه الأخيرة لم تكن مباشرة، أي لم يعد دريدا كشخص بل كفكرة وكفلسفة وكنقد؛ العودة تقتضي حضورا مسبقا في المكان الذي تعرّض للهجر وتمّت مغادرته، فدريدا ليس بالأجنبي étranger عن المغرب العربي،

لكنه مهاجر، وهو في الوقت نفسه ليس بالمواطن الأصلي، بل مستوطن(الجزائر) لا تزال صفة الغريب étrange لصيقة به وملازمة له. تدخل الغربة في علاقة عكسية مع الألفة، حضور الواحدة يفرض غياب الأخرى. فكل من ليس لدينا به ألفة غريب، ليس فقط بالمعنى المختلف عن الأنا أو الذات، وإنما أيضا المثير للقلق لأنّه مبهم وغامض وملغّز، فهو يُثير الإعجاب والفضول، وفي الوقت نفسه الاحتراس والنفور. وكل غيرية تحتمل هذا الأكسيمور أو التناقض بين الانجذاب نحو الآخر والنفور منه.

إنّه هاجس الغرابة ومنه الرغبة، فكل غريب أو مختلف مرغوب فيه، لأنه غير عادي، أو غير مألوف inhabituel والجذر infixe من in(habit)uel في الفرنسية و un(heim)liche في الألمانية تُحيل إلى العادة والاعتياد، وبوجه أوسع إلى السكن، ذلك لأن السكن في اللسان اللاتيني habitatio مرتبط بالعادة habituari ووثيق الصّلة باللباس habit. واللسان الألماني كذلك يتحدث عن الدار ملك للذات das heim، وعن الوطن أو موطن الميلاد die heimat وعن السري أو الملغّز heimlich وعن السرية أو الخفاء die heimlichkeit وتترجم أيضا إلى الشبح، وعن المحنة أو البليّة die heimsuchung وعن الانقضاء والموت heimgang، يستأثر هذا الحقل السيمانطيقي على فكرة جامعة وهادية هي الغربة المحيطة بالمهاجر[12]. على ذكر الشبح، وعلى ذكر الغربة الملغّزة المرتبطة بانعدام الألفة المثيرة للقلق والغموض، والتي بمقدار ما تجذب تُرهب القادم إليها، وكل من تألق الفضول في عينيه لاكتشاف أقاصي الآخر الغريب، قصد معاينة حدود غربته والتنقيب عن مكامن غرابته. أ ليست كل هذه صفات ونعوت صبغت التفكيك، أ ليست الشبحية مقولات من مقولاته المرتبطة بمختلف مفاهيمه ومصطلحاته وعلى إثرها بنيت متاهة الهوامش. أليس هذا هو دريدا بما أننا انطلقنا منه ومن غربته، انطلاقة عكس ما ساد وشاع، أوصلتنا إلى فلسفته؛ التفكيك الذي أظهره دريدا واحتجب خلفه، ليغدو بذلك دريدا طلاء قصديريا لمرآة يُرِي الأشياء (التفكيك) ولا يُرَى؛ إذ لطالما توارى واختفى لتمثله فلسفته.

كل ما قلناه سلفا عن الإضافة وعن الشبح guost يُحيلنا بالضرورة إلى الضيافة وقد سبق وأشرنا إلى علاقة الإضافة بالضيافة. أما بخصوص الشبح guost فإحالته تتعلّق بالتشاكل اللغوي مع كلمة ضيف guest[13] الطيف الزائر كما عُرِّف التفكيك اللامعرف.

زار التفكيك المغرب العربي في الثمانينيات كما سبق وذُكر، بعدما خضع دريدا لمنطق الضيافة، وحلّ ضيفا على الفكر المغاربي، لكنها ضيافة ليست كالمعهود، فدريدا قبل أن يستجيب للدعوة، اشترط ضرورة تغيير قواعد وقوانين الضيافة، وراح يربطها باللامشروط. الضيافة التي رغب فيها دريدا، ضيافة لا

مشروطة، بل وأكثر من ذلك مستحيلة؛ لأنها تدعو إلى ضرورة انتهاك قوانينها المتعلّقة بالشروط والمعايير والحقوق والواجبات، الفارضة نفسها على المضيف والمستضيف، لتقوم بعد ذلك على أساس قانون لا قانون يحكمه؛ حيث لا يجب على الضيافة أن تكون محكومة بقانون وواجب وشروط، هذا سيجعلها غير مطلقة، ولن تكون ممنوحة بأناقة للآخر الواصل والزائر الطارئ[14]. اقتران الضيافة بالمستحيل يذكرنا بالتفكيك المقترن والمرتبط هو الآخر بالمستحيل، اقتران تحققه التجربة أي تجربة المستحيل؛ تعريف من تعريفات التفكيك، وحتى تتسنى للمغاربة فرصة خوضهم لهذه التجربة في علاقتها بالضيافة وجب بداية تقبّلهم للغريب واستقبالهم له، استقبالا غير مشروط.إنّ الحديث عن المستحيل حديث عن الغريب، أي عن إمكان هذا اللا- ممكن ذاته[15].

المستحيل يحيلنا إلى الممكن الممتنع والمتمنّع، أو الذي لم يحن موعد تحققه بعد. والآخر يطوي في داخله العالم بأسره، فيغدو العالم هو الآخر عبارة عن هذا اللا-ممكن. إذا كان الآخر(الضيف) يدخل في علاقة مع العالم فإن المستضيف من وجهة نظر الضيف يشكل الآخر ويمثله، كل ذات تطوي داخلها آخرها، ليصبح بعد ذلك العالم بأسره موطنا لكليهما أي الضيف والمستضيف، فتسقط مشروطية الضيافة، ومركزية المستضيف بوصفه صاحب الدار ليتبادل الطرفين مهامهما، ويصبح الضيف هو المستضيف لكن في غير منزله.

التفكيك هو دائما ذلك الطارئ شأنه شأن الآخر، إنّه "استراتيجية بلا حدود، فعل ممتد وعابر"[16] بامتداده في الأراضي المغاربية، وبتجاوزه لحدودها، تمكن دريدا من استعادة مكانه داخل المغرب العربي- الجزائر على وجه الخصوص- كما تمكن من كسر الحاجز الفاصل بين المستضيف والضيف، وإلغاء التراتبية القائمة فيما بينهما، ساحبا رخصة السلطة التي امتلكها المستضيف، والتي راح من خلالها يضع شروطا للضيافة.

إلغاء التراتبية وقلب طاولة الضيافة العامرة بشروط الاستقبال واتيكيت التعامل مع الضيف/ الآخر الذي لم يعد آخرا بشكل مطلق، بعدما استوطن حيز المستضيف، كل هذا ساعد دريدا على قلب الأدوار، قلب تحوّل على إثره الضيف إلى مستضيف، وخلق بينهما نوعا من الألفة، بعدما كانت الغربة والغرابة عنوان علاقتهما المشروطة. تلك الألفة ستفتح باب الأنس كإخلاص مزدوج؛ إخلاص للذات بمعية الآخر، ووفاء لأكثر من واحد[17]. هنا يصبح الضيف جزءا من المنزل، يتخلى عن غربته، ليغدو مفهومه عائليا، فيه نوع من الألفة والحميمية الموقظة لإحساس الرفاهية الهادئة، والراحة الرغيدة والحماية الأكيدة،

كتلك المقدمة من طرف المنزل المريح والمسوّر[18]. إذا كانت الضيافة مرتبطة عند دريدا بالمستحيل، والتفكيك عبارة عن تجربة المستحيل، فإنّ أنس الضيف والمضيف تجربة الألفة كمؤشر لكيفية الكينونة معا، وفتح المجال للتحاب والتعايش بين هذا وذاك، لأن كلاهما وريثين للعالم، الوطن الذي يسع الجميع رغم الاختلاف والتناقض.

لا يتحقق الأنس إلا بتحقق الاعتياد والتعود على الضيف، وفي التعود والاعتياد تندس العودة كمؤشر من مؤشرات الشبح العائد دائما وأبدا، هذا ما سيُحيلنا إلى الضيافة الدريدية المستحيلة والمزدوجة، بل والمتعددة، إنها أكثر من ضيافة، لأنّ دريدا وبالتالي تفكيكه لم يحل ضيفا على المغرب العربي بصفته القادم من الغرب، بل بصفته المهاجر العائد، ولأنّه مهاجر فإنه ضيف في غربه أيضا ضيف يشغل منصب مضيف، وقد شغلت ضيافة دريدا نطاقا واسعا عندما حل ضيفا حتى على نفسه، إنه الجزائري بحكم المولد، الفرنسي بحكم الجنسية، اليهودي بحكم الديانة في داخله أكثر من ملمح هوياتي، مما جعله أكثر من واحد، شأنه شأن تفكيكه يستضيف كل واحد منه، الطرف الآخر وفي كل مرة تقلب الأدوار، ليجمع دريدا في داخله بين الضيف والمستضيف. وهذا ما يُفسر سبب دعوته إلى ضرورة إلغاء مشروطية الضيافة، وإلى قلب الأدوار التي على إثرها يستضيف الضيف مستضيفه.

نخلص مما سبق إلى أنّ دريدا لم يحل ضيفا على المغرب العربي فقط، بل لعب دور المستضيف أيضا؛ حيث استضاف المهتمين به من المغاربة في نصوصه وحقول اشتغاله ليستضيفوه بدورهم عن طريق الترجمة والكتابة والتأليف حوله، واعتماد استراتيجيته في الاقتراب من أنفسهم، ومن فكرهم ونصوصهم، وخلق قرابة مع دريدا وتفكيكه، قرابة تلغي المسافة وتجمع هذا بذاك تحت سقف واحد.

هذا المفهوم الدريدي للضيافة يشجع الذات على طرق أبواب الآخر المختلف اختلاف différenceيتشاكل صوتيا مع déférence، بمعنى الاعتبار والاحترام الهادف إلى التوافق والملاءمة مع إرادة الآخر، والذي بفضل الضيافة بدأنا نألفه ونأنس بوجوده. لكن دريدا يُقر أيضا بأنّ الضيافة hospitalité ليست بريئة دائما تماما كاللغة، لأنها تتشاكل صوتيا والعداوة hostilité ، فكل ضيافة تحمل في داخلها بذور عداوة، وكل عداوة ضيافة[19] لكن بشكل مختلف. إمكانية العداوة يجعل عملية تفسير رفض التفكيك ومعارضته من قبل بعض المتلقين، رفض عنيف وقطعي يُبشر بالدخول في عداوة مطلقة مع هذا الطارئ المتمثل في التفكيك، ومقاطعة مفاهيمه وقطع كل سبله في الاقتراب من النصوص التراثية والمقدسة على وجه الخصوص.

تمكن مفهوم الضيافة ذات الوجهين من شرح وتفسير طرق وسبل استقبال التفكيك في الخطابات الفلسفية، والنقدية والفكرية المغاربية، كما فسّر تلك الأصوات المرفوعة عاليا سواء المؤيدة أو المعارضة. وتمكن أيضا من جعل دريدا ذلك الآخر المطلق يتحول من ضيف إلى مستضيف، أشد مغاربية من المغاربة في حد ذاتهم لأنه لم يرث مغاربيته بل تعلمها. وعندما نتحدث عن دريدا فإننا بالضرورة نتحدث عن تفكيكه، حيث لا ينفك أحدهما عن الآخر.

- **خاتمة:**

في الختام يمكننا أن نقر بأنّ جاك دريدا لم يكن غريبا عن البيئة المغاربية بصفة كلية بل نشأ فيها حتى عدّ نفسه أكثر مغاربية من المغاربيين في حد ذاتهم، وقد مكّنته هويته المتعددة من التعايش والتفاعل مع مختلف البيئات سواء الغربية أم العربية وبالتالي المغاربية، فدريدا أكثر من أن يكون مجرد آخر مختلف، وبعثه بمفهوم الضيافة وإلزامها باللامشروطية، فتح المجال أمام الآخر/ الضيف، ليصبح مستضيفا لمضيفه، حيث قلب الأدوار تماما كما قلب المركزيات الأوروبية، ملغيا مبدأ التراتبية، ومُقرا بإمكانية تعايش الأضداد على أرضية واحدة، لا تلغي التناقض بل تجعله شرطا من شروط الانفتاح على المختلف وتقبله.

من خلال مفهوم الهوية عند دريدا وحملها وتحملها لمفهوم الغيرية، ومن خلال منطق الضيافة اللامشروطة يمكننا أن نقرأ التفكيك انطلاقا من صاحبه، بدل إلغاء التفكيك لجاك دريدا وحجبه خلفه، كما يمكننا تتبع مسار التفكيك في البيئة المغاربية، وتفسير طرق تفاعل وتعامل هذه الأخيرة مع فلسفة دريدا والعمل على استثمارها في قراءة النصوص والخطابات المختلفة.

هوامش:

[1] ينظر: جاك دريدا، في علم الكتابة، ترجمة: أنور مغيث، منى طلبة، المركز القومي للترجمة، مصر، ط2 2008، ص25.

[2] ينظر: عبد الغني بارة، الهيرمنيوطيقا والفلسفة، نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف (الجزائر) الدار العربية للعلوم ناشرون(لبنان)، ط2008،1، ص 40.

[3] ينظر: سارة كوفمان و روجي لابورت، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر، تر: إدريس كثير وعز الدين الخطابي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 1994.ص 65.

[4] ينظر: فتحي مروان، سؤال الهوية في عصر ما بعد الحداثة، من خلال كتاب" خطاب الهوية " لعلي حرب إشراف: فتيحة كحلوش مذكرة لنيل شهادة الماجستير، تخصص مدارس النقد المعاصر وقضاياه، جامعة سطيف2، 2013- 2014، ص 8.

[5] ينظر: حسن حنفي حسنين، الهوية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2012، ص 10.

[6] ينظر: محمد بكاي، أرخبيلات مابعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية، من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، دار الرافدين، لبنان opus، كندا، ط1، 2017.ص 39،38.

[7] ينظر: محمد شوقي الزين، الذات والآخر، تأمّلات معاصرة في العقل والسياسة والواقع، منشورات ضفاف (بيروت، لبنان) منشورات الاختلاف، (الجزائر)، ط1، 2012، ص 72.

[8] ينظر: نبيل محمد صغير وليندا كدير، إشكالية الهوية والمساواة في ما بعد النسوية، خطابات المابعد، في استنفاد أو تعديل المشروعات الفلسفية، مجموعة مؤلفين، إشراف: علي عبود المحمداوي، منشورات الاختلاف(الجزائر)، دار الأمان(الرباط)، منشورات ضفاف(بيروت)، ط1، 2013. ص 274، 275.

[9] ينظر: محمد بكاي، أرخبيلات مابعد الحداثة، رهانات الذات الإنسانية من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، ص 39، 40.

[10] ينظر: جاك دريدا، صيدلية أفلاطون، تر: كاظم جهاد، دار الجنوب للنشر، تونس، دط، 1998 ص 9.

[11] ينظر: سارة كوفمان و روجي لابورت، مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، ، تفكيك الميتافيزيقا واستحضار الأثر، ص 41.

[12] ينظر: محمد شوقي الزين، الهجرة، المسكونية، المنزل المفقود: عناصر في هاجس الغرابة، الهجرة وسياسات الضيافة، مجلة يتفكرون مؤسسة مؤمنون بلا حدود، الرباط، المغرب، العدد11، 2017 ص 20 و25.

[13] ينظر: المرجع السابق، ص25.

[14] ينظر: جاك دريدا، آن ديفو مانتيل، آن ديفو مانتيل تدعو جاك دريدا كي يستجيب للضيافة، تر: منذر عياشي المركز القومي للترجمة، مصر، د.ط، 2009ص 47-52.

[15] ينظر: مجموعة مؤلفين، لغات وتفكيكات في الثقافة العربية، تر: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر المغرب، ط1 1998،ص 216.

[16] ميشال ريان، جونثان كيلر، ريتشارد رورتي، كريستوفر نوريس، مدخل إلى التفكيك، تر: حسام نايل الهيئة العامة لقصور الثقافة القاهرة، ط1، 2008ص 13.

[17] ينظر: المرجع السابق، ص 15.

[18] ينظر: سارة كوفمان، روجي لابورت،مدخل إلى فلسفة جاك دريدا، ص 63.

[19] ينظر : محمد شوقي الزين، الهجرة، المسكونية، المنزل المفقود: عناصر في هاجس الغرابة، مجلة يتفكرون ملف الهجرة وسياسات الضيافة، العدد 11، 2017، ص 16و 18.